بعباده، فلا يختص رزقُه بخصوص القتل في سبيله، حيث الأصل هو المهاجرة في هذه السبيل، فمن يعيش حياتُه مهاجرة في سبيل الله، فهو من أهل هذه الآية على قدر نصيبه من هذه السبيل: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

فهنا الموت وهو أعم من القتل، وهناك القتل أو الموت، مما يدل على ألّا فارق بينهما ما هما مشتركان ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اللهم إلا تفارقاً في درجات السبيل، فقد يفضل قتيل على ميت أو قتيل، أو ميت على ميت أو قتيل ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾(٢) ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣).

ذلك ترغيب عام هام بالنسبة للمهاجرة في سبيل الله، ولأن طبيعة الحال في حياة المهاجرة أن يتربص بها دوائر السوء، يتلوه وعد النصر:

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾:

فهذه ضابطة عامة هي السماح في المعاقبة بالمثل في سبيل الله، وأما المعاقب في غير سبيل الله فلا سماح له بالمثل إذا كان تأديباً أم ردَّة فعل لما أخطأ، اللهم إلا من ظُلم.

فالمعاقب بالمثل إذا بغي عليه، أنه موعود بالنصر، حيث عوقب في سبيل الله، وعاقب بالمثل بإذن الله، فإذن: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أترى ما هي الصلة بين وعد النصر لمن بغي عليه وبين عفو الله وغفره؟

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

علّه بمناسبة شأن النزول حين دافع سرية الرسول في الشهر الحرام عن أنفسهم فتحرجوا[١].

ثم المعاقبة بالمثل مسموحة كضابطة وليست واجبة إلا أحياناً، وهي مرجوحة أخرى على سماحها، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[٢] ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٣].

كيف لا ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٤] فالغفر شامل حتى موارد السماح بالاضطرار فضلاً عن غير الاضطرار مهما كان مسموحاً، حيث الأصل المحلِّق على كل الأصول هو التغامض عن المعاقبة بالمثل، ما كان دفعاً للسيئة بالحسنة ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾[٥] أم دون دفع ما لم يخلِّف تطاولاً من الظالم عليه وعلى من سواه من المظلومين علّه ينتبه.

فقد يبتلي المؤمن بالمعاقبة بالمثل والظرف ظرف رجاحة العفو والإصلاح، فالنصرة الإلهية تشمله كظروف الرجاحة والوجوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ عن مثل ذلك اللمم.

ثم الغَفْر لا يختص برفع أثر العصيان بعدما كان، بل ودفع العصيان عن

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣٦٩ - أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال: إن النبي ﷺ بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين فقال المشركون بعضهم لبعض قاتلوا أصحاب محمد ﷺ فإنهم يحرمون القتل في الشهر الحرام وإن أصحاب محمد ﷺ ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من بدأهم وقاتلوهم فاستحل الصحابة قتالهم ونصرهم الله عليهم.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.

المعفو، من نفسه أم سواه، فحين يعاقب المؤمن بالمثل ثم يبغى عليه يعفو الله عما فعل ويغفر له دفعاً عنه من نفسه أم سواه عن التطاول، حيث المعاقبة تخلِّف تطاولاً طائلاً من المعاقب عليه والله يغفره ويستره عن المظلوم فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تتبع في معناها موارده، وهذه المعاني معنية حسب الموارد المختلفة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾:

إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل سنة كونية تشبه هذه السنة الشرعية والكونية في المعاقبة بالمثل، فكما أن الله يولج كلًّا في الآخر كظاهرة طبيعية تمر بالبشر ليل نهار وصيف شتاء، فلا تطاول لليل على نهار أم لنهار على ليل، اللهم إلا تساوياً لردح قصير في ليال وأنهار، مصلحة دائبة قد تخفى على الناس.

كذلك الأمر بين المتعاقبين، سماحا تكوينياً لمن يَظلِم، ثم سماحاً شرعياً في معاقبته بالمثل، ثم نصرة للمنتصر بعد ظلمه إذ بغي عليه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ قيلات المعترضين، ومقالات المظلومين ﴿بَصِيرٌ﴾ بحالات أولاء وهؤلاء، فلا يعاملهم في أحكامه التكوينية والتشريعية إلا بالعدل، كما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، قصراً في كلٍّ ومزيداً في الآخر كمصلحة كونية وناموس مطَّرد طبيعي، كذلك الله يفعل بخلقه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ...﴾.

هنا الليل - علَّه - كناية عن ليل الظلم على المظلوم، والنهار هو الظالم، حيث يصيب من حق المظلوم انتقاصاً منه، ثم يولج النهار في الليل، معاقبة بالمثل المسموحة للمظلوم، إيلاجاً لكلٍّ في كلٍّ على سواء فكما الليل يزوي سلطان النهار، كذلك ليل المظلومين يزوي بظلامه سلطان المتجبرين وينشر سلطان المؤمنين المظلومين.

وفيما نراه لا يعاقَب الظالم بمثل ما ظَلم واقعياً مهما كان الحكم هكذا شرعياً، وهو الأكثرية الساحقة من الظلامات؟ فالنشأة الآخرة هي المجالة الأخرى الوافية الموفية لذلك الانتصار، فـ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ ليست لتختص بالأولى، والآخرة خير وأبقى، وقد جمعت النصرة للحسين عليه السلام بين النشأتين، فهنا النصرة لمرامه ومرماه حيث يقود مدرسة الشهادة والنضال في سبيل الله، مستمراً به القتال ضد الفرعنة اليزيدية الأموية طوال التاريخ.

ثم نصرة ثانية عالمية بولده القائم المهدي عليه السلام [١] ثم في الآخرة النصرة الأوفى ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٢]. فعلى المظلوم أم له أن ينتصر، وهو منصور هنا أم في الأخرى أم فيهما كما وعد الله، والآخرة أوفى فإنها هي دار الجزاء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾:

(١) نور الثقلين ٣: ٥١٨ في تفسير القمي وأما قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ...﴾ [الحجّ: ٦٠] فهو رسول الله صلى الله عليه وآله لما أخرجته قريش من مكة وهرب منهم إلى الغار وطلبوه ليقتلوه فعاقبهم الله تعالى يوم بدر وقتل عتبة وشيبة والوليد وأبو جهل وحنظلة بن أبي سفيان وغيرهم فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله طلب يزيد بدمائهم فقتل الحسين وآل محمد صلوات الله عليهم بغياً وعدواناً وظلماً وهو قول يزيد حين تمثل بهذا الشعر:

ليت اشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من خندف إن لم انتقم ... من بني أحمد ما كان فعل
قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل
وكذاك الشيخ أوصاني به ... فاتبعت الشيخ فيما قد سأل

فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ [الحجّ: ٦٠] يعني رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [الحجّ: ٦٠] يعني الحسين عليه السلام أرادوا أن يقتلوه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحجّ: ٦٠] يعني بالقائم صلوات الله عليه من ولده.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العدل والتعديل في التكوين وفي التشريع، دونما تخلُّف هنا أو هناك قيد شعرة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فلا يأتي منه إلا الحق، بحكم العلم والقدرة والحكمة البالغة، العادلة الفاضلة، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من آلهة وأحكام ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ متأرجفاً في الحكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ عليّ عن أن تناله الأوهام، ومن تطاول في الأحكام، وكل ما لا يناسب ساحة الرب الملك العلام، فـ ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ لا سواه، وهو ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في علوه لا سواه، فرب علي غير كبير، علواً جعلياً مؤقتاً، أو استعلاءً دون حق، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ لا يأتي منه إلا الحق العالي الكبير.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾:

وكما هنا الأرض الموطوءة بالأقدام، اليابسة الواطئة تحت الأقدام، تصبح مخضرة بماء السماء، كذلك الله يفعل بالمظلومين المحطمين حيث ينزل ماء الحياة النصرة إليهم تكويناً وتشريعاً في الأولى، وانتصاراً وافياً في الأخرى، كما وينتصر لهم أحياناً في الدنيا، وفي آخر أحيانها يوم المهدي عليه السلام: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] حين تصبح أرض المستضعفين مخضرة بماء الرحمة والقوة والسلطة العالمية.

ولماذا «تصبح» مستقبلاً استمرارياً بعد ﴿أَنزَلَ﴾ ماضياً؟ حيث إن اخضرارها نتيجةٌ متأخرة عن إنزال ماء السماء، هي في نفس الوقت مستمرة حيث الماء النازل إليها هو نصيبها الدائب، مهما يتبخر صاعداً ويرجع نازلاً على طول خط الحياة الأرضية، وهكذا الله يفعل بالمستضعفين المؤمنين، ثم الانتصار الوفي في دولة المهدي عليه السلام ومن ثم الأوفى في الأخرى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2].

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿لَّهُۥ﴾ مُلكاً ومِلكاً، قدرة وعلماً، إيجاداً وإعداماً، خلقاً وتدبيراً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ صيغة رائجة عن الكون كله، وهما يشملان ما بينهما وما عليهما ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ﴾ لا سواه ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ دون فقر ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ بكل مدح ودون أي ذم وقدح، فطبيعة الغنى لمن سوى الله هي الطغيان ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[1] وهي في الحق أفقر من كل فقر، فغناه تعالى كسائر صفاته رحمة كلها.

فالغني قد يكون ذميماً حيث يطغى، أم لا ذميم ولا حميد وهو الذي يتاجر بغناه، فإذا أنفق يرجو منه عائدة مادية أم روحية، أم هو حميد إذ لا ينتفع بما ينفق وهكذا الله دون من سواه، فإنه ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ المطلق ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المطلق، دون حاجة في غناه ولا لؤم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا رسول الهدى، أم أي راءٍ كان، رؤية العلم والإحساس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من جماد ونبات وحيوان، مما يرى وما لا يرى، ما على ظاهر الأرض سطحاً أو جواً، براً أو بحراً، أم في باطنها، تسخيراً بعلم موحى أم مستفاد، وبقدرة موحاة أم مستفادة، لولا تسخيره لما تَسخرت لنا الأرض بما فيها.

فلولا التناسق بين طينة الإنسان وطينة الأرض لما استطاع الحياة عليها فضلاً عن أن يستفيد منها، ولو اختلفت كثافة الأرض بجوها عن كثافته وما يحتاجه من جوٍّ لما استقرت قدماه عليها كما لا تستقر في كرة أخرى مثل القمر.

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

فهناك آلافات الموافقات بين الأرض وإنسانها سخرت بها الأرض له، وكل ما هنا منه أن يسعى كيف يستفيد منها!

وسخر «الفلك» حال أنها ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حيث الماء الملتطم، والريح المحتدم، هما بأمر الله، كما الفلك بموادها وشكلياتها مصنوعة بأمر الله، فصانعها بما يعقل ويعلم هو من أمر الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله، فالفلك مسخرة لنا بأمره مهما كانت لنا محاولات في أمرها، حيث النصيب الأوفر في أمرها هو أمره تعالى، بل الكل في أمره لحد الاختيار دون الإجبار.

وليست الفلك هي - فقط - السفن الشراعية التي تجري بالأرياح والشراعات بل هي كل جار في البحر، سواء أكانت تلك السابقة، أم كل لاحقة تجري بقوات بترولية وكهربية أماهيه من طاقات مرئية وغير مرئية هي مما سخرها لنا ربنا.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بأنجمها ﴿أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بأنجمها محيطة بالأرض مرفوعة عنها دون عمد ترونها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1] إذاً فثم عمد ولكن لا ترونها، فـ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ بتلك العمد مما نعلمه أولاً نعلمه، وهما مما لا يرى، فلو لم تكن هناك عمد لتساقطت السماء بأنجمها على ما في مركزها، والأرض من مراكزها حيث هي محاطة بها، فهي ممسَكة بإمساكه تعالى، لا تقع على الأرض ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فقد يأذن أن تقع أجزاء سماوية على الأرض كالأحجار السماوية التي تصيبها أحياناً كعذابات مؤقتة يسيرة، ثم ويأذنها كلها أن تقع كما يأذن الأرض، أن تقع عليها وتتساقط كلٌّ على كلٍّ حين ينفرط عقد الكون كله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2].

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

إذاً ففوقنا بليارات الأنجم بشهبها وأحجارها وسائر ما فيها، هي كلها تهدِّدنا بالسقوط لولا رأفته تعالى بنا ورحمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

فيا ويلاه لولا رأفة الله ورحمته بنا، وهنالك بليارات من السواقط السماوية تهدفنا، من نيازك نارية تهدف الشياطين، ومن أحجار تهدف أرضنا، ولكن الله لا يأذن لها أن تقع على الأرض، إلا بإذنه يوم الطامة الكبرى، أم طرف ضئيل من ذوق العذاب قبلها!.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ في هذه الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عنها فتظلون أحياءً بالحياة البرزخية ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للحياة الأخرى بعد النفخة الأولى المميتة عن الحياة البرزخية: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] وكل من هذه وما سخر لنا مما في الأرض، والفلك تجري ويمسك السماء، كلها نعم تتطلب الشكر، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ علمياً حين يتجاهل هذه النعم، وعقيدياً حين ينكرها، وعملياً حين لا يصرفها في مرضاة الله تعالى.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾:

المنسك كما أسلفناه هو منسك الحج ومنه الذبح[2] أم هو كل عبادة

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٦٩ - أخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي ابن الحسين عليه السلام: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ قال: ذبحاً هم ذابحوه حدثني أبو رافع أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أملحين أقرنين فإذا خطب وصلى ذبح أحدهما ثم يقول: اللهم هذا عن أمتي جميعاً من شهد لك بالتوحيد ولي بالبلاغ ثم أتى بالآخر فذبحه وقال: اللهم هذا عن محمد وآل محمد ثم يطعمها المساكين ويأكل هو وأهله منهما فمكثنا سنتين قد كفانا الله الغرم والمؤنة ليس أحد من بني هاشم يضحي.

حين إطلاقه كما هنا و«كل أمة» تستغرق الأمم الخمس في الشرائع الخمس، وكل الشرائع هي ناشئة من الأمر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ . . .﴾[١].

- ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ حيث الأمر كله لله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ . . .﴾[٢]. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

فبمجرد أن منسكاً - في هذه الشرعة أم أية شرعة بعد أخرى - يختلف عما قبلها، لا يحق لأهل الشرعة السابقة أن يعترضوا على هذه اللاحقة رمياً لها بالفرية إذ لا يجدونها في شرعتهم، كما ليس لأهل اللاحقة أن يعتبروا سابقتها ناقصة غير لائقة، فإن الشرائع بمناسكها هي سلسلة متواصلة، موصولة بأصل الدين الطاعة ولا واضع لها إلا الله، فكيف يعترض متشرع على الله ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أمر الدين - أمر الرسالة - أمر الشرعة أو أي أمر تحمَّله من الله صاحب الأمر ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بدل الاشتغال بمنازعتهم فـ ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ دون أي عوج، فعليك يا حامل الرسالة الأخيرة بمواصلة الدعوة دون تلفت إلى من ينازعونك، ولا تفلت عنها ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

إنهم - أياً كانوا - كتابيين أو مشركين، كانوا يُمركِزون ما يعملون ويقيسون عليه - كأصل - أعمالَ من سواهم، فكانوا يجادلون الرسول ﷺ في منسكه إذ كان غير منسكهم، فيؤمر الرسول - إذن - أن يحوِّل أمر الله

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ١٧.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ١٨.

إلى الله: ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من عمل، جدالاً في الأمر وسواه من أمر، وما أنا إلا رسول فـ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[١].

ومما كان يجادل فيه المشركون قولهم اعتراضاً عليه «أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلون وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال»[٢] وهم ليسوا من هذه الأمم المجعول لهم منسك هم ناسكوه!.

وكذلك سار الجدال معه بالنسبة لشرعته الخاصة الناسخة لما قبلها، من المشركين ومن أهل الكتاب وكأنه بدعٌ من الرسل، حيث المنسك مهما يستعمل في الأضحية، يعم مناسك الحج كلها، ثم ومناسك الشرعة كلها فتتجاوب الآية آية الشرعة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ...﴾.

وقد تكون العبادة والمنسك كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فآية المنسك السابقة تذكره رَدف عبادات وقَرْنَ الذبح، مما يدل على معنى خاص، وهنا ﴿مَنسَكًا﴾ وهو لكل أمة دون قرين، قد يشمل كافة الطقوس الشرعية.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ...﴾ وقل:

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

وهكذا يأمره الله تعالى ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أو يجادلوه مضياً على نهجه دون التفات ولا انشغال بنزاع المنازعين ولا جدل المجادلين،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٦٩ - أخرج ابن المنذر عن مجاهد ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [الحَجّ: ٦٧] قول أهل الشرك... وفي نور الثقلين ٣: ٥١٩ عن جامع الجوامع في الآية روي أن بديل بن ورقاء وغيره من كفار خزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنون الميتة.